المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:05، العدد:01 (2021)، ص418-430

مسألة السيادة وفكرة الوطنية في كتابات المؤرخين الجزائريين 1830-1962

THE ISSUE OF SOVEREIGNTY AND THE IDEA OF PATRIOTISM IN THE WRITINGS OF ALGERIAN HISTORIANS 1830-1962

فتح الدين بن أزواو
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
benazouaou_71@hotmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/04/30
تاريخ القبول:
2021/05/30

الكلمات المفتاحية:
- ✓ السيادة
- ✓ الوطنية
- ✓ المؤرخون

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى اكتشاف موقف بعض المؤرخين الجزائريين من مسألة السيادة وفكرة الوطنية في الجزائر، يبحث في الحقائق التاريخية والحجج العلمية المقدمة والمنهجية المعتمدة في دراسة هؤلاء المؤرخين لهاتين القضيتين، في مسار ردودهم المختلفة على مغالطات المدرسة التاريخية الاستعمارية في هذا المجال، من خلال كتابات بعض رواد الجيل الأول من المؤرخين (خوجة، الميلي، المدني)، وأدبيات الجيل الثاني (سعد الله، الزبيري، سعيدوني، بوعزيز، قنان...). وتمخض عن البحث مجموعة من النتائج، تمحورت حول أهمية الطرح العلمي الجديد للمؤرخين الجزائريين، الذي به كشفوا زيف أطروحات مدرسة التاريخ الاستعماري، وبلوروا اتجاها علميا وفكريا، أصبح يمثل مرجعا لكثير من الأبحاث العلمية، ومستندا لعديد من النقاشات الثقافية والسياسية في الجزائر.

Article info

Received:
30/04/2021
Accepted:
30/05/2021

Key words:
- ✓ Sovereignty
- ✓ Patriotism
- ✓ Historians

Abstract:

This research aims to discover the position of some Algerian historians on the issue of sovereignty and the idea of patriotism in Algeria, it examines the historical facts and the scientific arguments presented and the methodology adopted in these historians' study of these two issues, in the course of their various responses to the fallacies of the colonial historical school in this field, through the writings of some pioneers of the first generation of historians (Khodja, El Mili, El Madani), and the literature of the second generation (Saâdallah, Zoubairi, Saidouni, Bouaziz, Genan ...). The research resulted in a set of results, centered around the importance of the new scientific proposal for Algerian historians, in which they exposed the falsity of the theses of the colonial school of history, and formulated a scientific and intellectual trend, which has become a reference for many scientific researches, and a basis for many cultural and political discussions in Algeria.

مسألة السيادة وفكرة الوطنية في كتابات المؤرخين الجزائريين 1830-1962

مقدمة

تعرض التاريخ الجزائري للطمس والتشويه من طرف المدرسة الاستعمارية وجهود المستشرقين وكتابات المؤرخين الفرنسيين، وهذا طبيعي بالنسبة لاستعمار كان يعتبر الجزائر جزءا لا يتجزأ من التراب الفرنسي وظف كل الأدوات الثقافية والعلمية والدينية، بما في ذلك العسكرية لتمرير مشروعه الطموح في الجزائر وهو القضاء على كيان وسيادة الجزائريين وقتل روحهم الوطنية، فتشكلت – على مدى الحقبة الاستعمارية – مدرسة تاريخية فرنسية لها نفس إيديولوجية الاستعمار، ناكرة للكيان الجزائري وسيادته نافية لكل نشاط وطني أصيل. ورغم نجاح المشروع الجزائري المتمثل في استرجاع السيادة عام 1962م، فإن إرث التركة الثقافية الاستعمارية مازال عبؤها إلى اليوم باديا، ممثلة في مدرسة التاريخ الفرنسي، التي أنجزت كثيرا من المؤلفات والدراسات زيفت فيها كثيرا من الحقائق حول تاريخ الجزائر. ومن القضايا الجوهرية التي طالها التزييف والتشويه مسألتي السيادة والوطنية. **فكيف عالج المؤرخون الجزائريون هاتين القضيتين؟ وما مدى نجاحهم في تقديم منهج علمي سليم خلال هذه المعالجة؟ وهل استطاعوا بناء توجه جديد حول هاتين المسألتين يخالف طرح الكتابات الفرنسية؟** ويهدف البحث إلى معرفة مواقف وطرائق ومناهج معالجة المؤرخين الجزائريين لمسألة السيادة وفكرة الوطنية في معرض ردودهم على المؤرخين الفرنسيين الذين زيفوا كثيرا من الحقائق حول هاتين المسألتين. ولمعالجة الموضوع، اعتمدنا على المنهج التاريخي بفروعه، الوصفي لعرض أطاريح المؤرخين الفرنسيين، والتحليلي لتحليل رد المؤرخين الجزائريين على هذه الأطاريح، والمقارن لمقارنة مواقف المؤرخين الجزائريين والفرنسيين من مسألة السيادة وفكرة الوطنية في الجزائر.

1. مفهوم السيادة والوطنية

السيادة الجزائرية، هي الإيمان بأن الأمة الجزائرية موجودة مثل كل الأمم لها مميزاتها وخصائصها وهذا الوجود في نظر حمدان خوجة هو حضاري، وفي الوقت نفسه سياسي، الذي به تستحق الأمة الجزائرية الاستقلال والسيادة كما حصلت عليه الأمم الأوربية، كون الجزائر بلد عربي مسلم له شخصيته العربية المستقلة، يشكل قومية تختلف اختلافا جذريا عن القومية الفرنسية[1] . أما الوطنية الجزائرية، فهي الإحساس الوطني المشترك الوفي للجزائري نحو أمته، وجدت منذ قرون، تبلوت في أذهان الجزائريين نتيجة خطر الاحتلال، الذي كان عاملا، على حد تعبير سعد الله، في أن تكون "**قوة سياسية تصارع من أجل البقاء**" [2]. ومن المفهومين السابقين نلاحظ بأن العلاقة وطيدة بين السيادة والوطنية، بل إن السيادة والوطنية في التاريخ النضالي الجزائري مرتبطتين ببعضهما ارتباطا وثيقا، فمتى كان النشاط يهدف إلى استرجاع السيادة وحمايتها ارتفعت معه عاطفة الوطنية، وتنخفض هذه العاطفة كلما ابتعد النشاط عن هدف استرجاع السيادة.

2. تحديد أجيال المؤرخين الجزائريين المعنيين بهذه الدراسة

اعتمدنا على المؤرخ حمدان خوجة صاحب كتاب المرآة، الذي يعتبر أول مؤرخ جزائري، قبل ظهور تيار مدرسة التاريخ الجزائري بقرن، ناقش مسألة سيادة الكيان الجزائري، بل اعتبره سعد الله أول جزائري عرف

الكيان الجزائري تعريفا حديثا[3] ، وقد نهلت مدرسة التاريخ الجزائري من أفكاره في هذا المجال. ويرجع ظهور هذه المدرسة إلى ثلاثينيات القرن العشرين، خاضت سجالا ضد مدرسة التاريخ الاستعماري، وضد حركة التغريب الاستعمارية، انشغل مؤرخوها بمسائل الهوية الوطنية وإحياء أمجاد الأمة الجزائرية. من روادها الأوائل مؤرخو جمعية العلماء المسلمين، كتوفيق المدني ومبارك الميلي، ثم تبلورت في مؤرخين ينحدرون من التيار الاستقلالي، كمصطفى الأشرف[4] ، ومؤرخين آخرين متأثرين بأطروحات هذه المدرسة، برزوا في مرحلة الاستقلال، كأبي القاسم سعد الله، يحيى بوعزيز، جمال قنان، ناصر الدين سعيدوني، محمد العربي الزبيري. كل هؤلاء بمختلف الفترات الزمنية التي ظهروا فيها اعتمدنا على كتاباتهم في معالجة هذا الموضوع.

3. موقف مدرسة التاريخ الفرنسي من مسألتي السيادة والوطنية الجزائريتين

حاولت مدرسة الاستعمار تغييب التاريخ الوطني ومعه الكيان الوطني والسيادة والروح الوطنية؛ فقد كانت دروس التاريخ المقدمة في العهد الاستعماري تتجاهل تاريخ الجزائر بل وتحرفه: "**كانت بلادنا تسمى قديما الغال (La GALLE) وأجدادنا الغاليون (Les GAULOIS)** ". هذا كما قال أحد الباحثين من أجل بث روح الهزيمة وقتل الروح الوطنية استعداد لعملية الفرنسة والإدماج[5] . وكثيرا ما نقرأ كذلك عن هذه المدرسة بأن الوطنية دخيلة عن المجتمع الجزائري كونها جاءت بفضل التأثيرات الفكرية من المشرق[6] . وبالرغم من أن النزعة الوطنية في المقاومة المسلحة كانت تختلط بالنزعة الدينية الجهادية، التي كانت تهدف إلى الدفاع عن الدين والنفس والأرض، فإن المؤرخين الفرنسيين حاولوا تشويهها، بوصفها مقاومات معزولة مدبرة من مرابطين متعصبين ثاروا ضد دفع الضرائب [7]. ولعل هذا ما يفسر استعمال هؤلاء المؤرخين لمصطلح الحرب المقدسة في معرض حديثهم عن هذه المقاومات[8] لما لهذا المصطلح من دلالات تتعلق بالتعصب والتطرف وكره الأجانب.

بالنسبة للمقاومة السياسية وعلاقتها بقضيتي السيادة والوطنية، فقد ذهب بعض المؤرخين الفرنسيين كشارل أندري جوليان وتلميذه شارل روبير أجيرون، إلى أن عملية الوعي واليقظة السياسية الوطنية التي عرفها الجزائريون لم تكن أصيلة لديهم بل استمدوها من الخارج بعد قرن من الاحتلال [9].

والأمر نفسه بالنسبة لنضال الجزائريين خلال الثورة التحريرية، أفرغه بعض المؤرخين الفرنسيين من محتواه الوطني والحضاري، فمثلا اعتبر المؤرخ العسكري "**روبير لاكوست**" الثورة الجزائرية مجرد حرب انطلقت بطريقة عفوية لا تملك أية منظومة فكرية وطنية، مبررا قوله برغبة الجزائريين الشديدة في إخراج فرنسا من الجزائر فقط [10]. هذا ما يفسر استعمال المؤرخين الفرنسيين لعبارة "**حرب الجزائر**" عوض "**ثورة الجزائر**"، ولا ريب أن البون شاسعا في المفهوم بين مصطلح "**حرب**" ومصطلح "**ثورة**"، فالحرب هي التي تنطلق بشكل فجائي تفتقد للمذهب الفكري الواضح، تختفي فيه المبادئ والأهداف، أما الثورة فهي التي تنطلق بهدف التغيير الجوهري في الأوضاع القائمة بوسائل تخرج عن النظام المألوف، وهي التي تنبعث من الشعب وتعبر عن

أهدافه وطموحاته[11] . وهي دائما تكون نتيجة إرهاصات فكرية وتنطلق من إيديولوجية معينة. ولعل هذا ما ينطبق على الثورة الجزائرية، التي انبثقت ونشأت من المعاناة الفكرية والنضالية للشعب الجزائري طوال حقبة طويلة من الاستعمار، فجاءت أفكارها مطابقة لأفكار مجتمعها ووقع الاحتضان والتبني لها على أساس وطني خالص هو الرغبة في التحرر استرجاع السيادة الوطنية بمختلف أشكالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية. وإذا فهمنا هذا الفرق في المفهوم بين عبارتي "**حرب الجزائر**" و"**ثورة الجزائر**"، فإننا ندرك لماذا ا ختار المؤرخون الفرنسيون العبارة الأخيرة، لما من دلالة تحملها في نفي الروح الوطنية والإنقاص من قيمة الأهداف المرجوة، المتمثلة أساسا في استرجاع السيادة كاملة غير منقوصة.

4. منهجية معالجة حمدان خوجة والرعيل الأول من مؤرخي مدرسة التاريخ الجزائري لمسألتي السيادة والوطنية

اعتمد المؤرخ والسياسي حمدان بن عثمان خوجة منهج المقارنة في إثبات الكيان الجزائري والمطالبة باستقلاله؛ هذا ما تناوله في كتابه "**المرآة**"، عندما دعا فرنسا تطبيق نفس المبدأ (الاستقلال) على الأمة الجزائرية كما طبق على بعض الأمم في أوروبا (اليونان، بلجيكا، بولونيا) وهو إقامة حكومة أهلية حرة مستقلة مثلما أقيمت في تلك الدول الأوروبية[12] .

هذه الرؤية تنطلق من أن الأمة الجزائرية موجودة مثل كل الأمم لها مميزاتها وخصائصها، وهذا الوجود في نظر حمدان خوجة هو حضاري، وفي الوقت نفسه سياسي، الذي به تستحق الأمة الجزائرية الاستقلال والسيادة كما حصلت عليه تلك الأمم الأوروبية، كون الجزائر بلد عربي مسلم له شخصيته العربية المستقلة، يشكل قومية تختلف اختلافا جذريا عن القومية الفرنسية، ومن ذلك فله الحق في التحرر كباقي القوميات الأوروبية. فالأمة الفرنسية والأمة الجزائرية، في نظر خوجة، لا يمكن أن تتعايشا في الجزائر، لأن عناصر الشبه بينهما معدومة في اللغة والعادات والتقاليد، وما يمكن أن تفعله فرنسا للجزائريين في مثل هذا الحال هو تأييد فكرة الكيان الجزائري كما فعلت مع اليونان وبلجيكا.

وقد حاول الجيل الأول من مؤرخي المدرسة التاريخية الجزائرية كشف مغالطات مدرسة التاريخ الفرنسي حول مسألتي السيادة والوطنية، معتمدين على المنهج التاريخي الذي يرتكز على الاستشهاد بالوقائع والحقائق التاريخية المادية؛ في هذا الإطار قدم لنا توفيق المدني ومبارك الميلي نظرة جديدة لتاريخ الجزائر القديم والحديث، أثبتا بها تواجد الكيان الجزائري منذ عصر ما قبل الميلاد مستدلين على ذلك بالحضارة الفنيقية والشخصيات القيادية الجزائرية الأمازيغية (ماسينيسا، يوغرطة، تاكفاريناس) التي فرضت نفسها في القيادة والمقاومة، وكان هدف المدني والميلي هو إبراز الأبعاد السيادية الوطنية لتاريخ الجزائر والاعتراف الضمني بوجود كيان وحضارة للجزائر قبل الإسلام، فضلا عن وجود نزعة وطنية أصيلة، متمثلة في الدفاع عن الأرض والشرف ضد الغزاة الرومان [13] .

بل إن تدين الميلي والمدني لم يدفعهما إلى النيل من الكاهنة في كتابهما، بل وقفا منها موقف المتسامح المتفهم [14]. لإبراز صفة الشهامة والوطنية لدى العنصر الأمازيغي ليكون نبراسا يقتدى به في الوطنية واستمرارية الكفاح لدى الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي. هذه النظرة الإيجابية للتاريخ الأمازيغي الجزائري كان لها صدى لدى بعض المثقفين في بلاد القبائل فمثلا خلف كتاب أحمد توفيق المدني (قرطاجنة في أربعة عصور) تأثيرا هائلا على بعض المؤمنين بالنزعة البربرية، كمحند إيدير آيت عمران، الذي قال عنه بأنه: "**قلب وجودي وحدد نهائيا توجهاتي ومشاعري وإيديولوجيتي الوطنية...وقد كان بالنسبة لي حقيقة جديدة...حيث اكتشفت أن تاريخ بلادي لا يعود إلى القرن السابع الميلادي فقط، لكنه أبعد وأعمق من ذلك**" [15].

5. منهجية معالجة مؤرخي الرعيل الثاني لمسألتي السيادة والوطنية

1.5. حجج إثبات نزعتي السيادة والوطنية في المقاومة المسلحة

اعتمد المؤرخ محمد العربي الزبيري على منهج النقد التاريخي للوثائق في إثبات تمسك الجزائريين بمسألة السيادة، هذا ما اكتشفه عند دراسته لوثيقتي المعاهدتين الشهيرتين التي أبرمهما الأمير عبد القادر مع فرنسا (دي ميشال، والتافنة)؛ توصل إلى أن معاهدة دي ميشال مزيفة، فقد فسرت حسب ما جاء في النص الفرنسي، لأن النص العربي كما ذكر مفقودا، وبعد جهد وتحري منه وبحث في النسخ المطابقة للأصل العربي اكتشف تزييفا وقع في مسألة هامة جدا؛ تتعلق باعتراف الأمير بالسيادة الفرنسية، فالنص الفرنسي المزيف يثبت اعتراف الأمير بسلطة فرنسا، أما النص العربي الأصلي فلا يثبتها. أما معاهدة التافنة فقد جاء المؤرخ بأدلة دامغة تثبت زيفها؛ كان أهمها ما ذكره من كون وثيقة المعاهد المتداولة مكتوبة على صفحتين بلا ختم ولا توقيع، بينما نص المعاهدة الحقيقي كتب باللغتين على صفحة واحة مع ختم وتوقيع الأمير عبد القادر والجنرال بيجو [16].

وإذا سلمنا بما توصل إليه الزبيري فإنه يمكننا القول – ودون حرج– بأن الأمير عبد القادر لم يعترف في يوم من الأيام بسلطة فرنسا، وهو ما لاحظه كذلك المؤرخ محمد البجاوي بكون الأمير كان يتجنب في جميع مراسلاته – مع الفرنسيين – بحذر شديد كل صيغة يؤخذ منها الاعتراف بالسيطرة العليا لفرنسا أو لملكها. [17]

وعند دراسته لمقاومة أحمد باي قدم المؤرخ محمد العربي الزبيري شواهد مادية هي تنظيمات هذه المقاومة العسكرية والإدارية والسياسية والاقتصادية، اعتبرها دليلا على رغبة الجزائريين في الحفاظ استمرار الدولة الجزائرية المغيبة بموجب معاهدة 5 جويلية 1830. ومن ثم فإن الجزائريين حسب محمد العربي الزبيري كانوا يشكلون أمة ذات سيادة قبل الاحتلال الفرنسي [18].

وهذا ما رافع من أجله المؤرخ جمال قنان في معرض تحليله للعبارة التي تضمنها بيان أول نوفمبر "**إعادة بناء الدولة الجزائرية ذات السيادة**" قال: "**إنها تحمل في طياتها دلالات تاريخية تتكشف عنها حقائق تاريخية**

دامغة وهي أن الدولة الجزائرية كانت قائمة بمؤسساتها قبل الغزو الفرنسي وهذا م اظلت مدرسة التاريخ الفرنسي تعمل على دحضه" [19].

وذهب أبو القاسم سعد الله في إثبات النزعة الوطنية لمقاومة الأمير على نصوص المؤرخين الفرنسيين أنفسهم، ومن ذلك نذكر ما نقله عن المؤرخ " **ل.لاتياد**" صاحب كتاب عبد القادر عدو وصديق فرنسا قوله: "**إن عبد القادر قد تحدى أكبر الجيوش في وقته واخترع حرب العصابات ووضع أسس الوطنية الجزائرية**"[20].

هذه المنهجية اعتمدها كذلك مصطفى الأشرف حيث نقل نصوصا لضباط فرنسيين شاركوا في مجابهة المقاومة الشعبية اعترفوا فيها بالنزعة الوطنية والقومية للمقاومين الجزائريين؛ ومن هؤلاء مثلا الذين نقل عنهم الضابط كانروبير: "**لقد سرنا في طول البلاد وعرضها لكي نقوم بإحراق ونهب وتخريب ممتلكات القبائل الساكنة فيما بين البليدة ونهر الشلف ونواحي شرشال، ورغم أننا استطعنا أن نلقي الرعب في قلوب السكان إلا أننا أبعد ما نكون من بلوغ الهدف الرئيسي وهو إخماد الفتن والقضاء على الثورات**" [21]. واستشهد بحديث لضابط فرنسي آخر يقول فيه: "**لم يعد لي من عمل سوى منع القبائل من الهجرة والالتحاق بعبد القادر**"[22]. كما نقل الأشرف نصا عن "**الدوق أورليان**" أشاد فيه بالروح الوطنية العالية للجزائريين ورغبتهم الشديدة في استرجاع السيادة: "**إن هؤلاء المناضلين الشجعان ألحقوا بالفرنسيين من الأضرار ما لم تستطع قوات العدو الآخر أن تلحقه بنا، وهم بذلك يشبهون الجيش الروسي غير النظامي فقد كان نصيبهم في تحطيم الجيش الإمبراطوري أكثر الجيوش النظامية الأخرى وهكذا مات كل منهما وهو يحارب من أجل وطن كان يتمنى أن يراه عزيزا منيعا**" [23].

وبالرغم من العلاقة الوطيدة بين النزعة الوطنية والنزعة الدينية في المقاومة المسلحة فإن المؤرخين الفرنسيين ـ كما ذكرنا سابقا ـ حاولوا تجاهلها، بوصفها مقاومات معزولة مدبرة من مرابطين متعصبين ثاروا ضد دفع الضرائب[24] . حاول المؤرخون الجزائريون الرد على هذا الطرح فذهب أبو القاسم سعد الله إلى البرهنة على أن العامل الديني كان محركا أساسيا للمقاومة المسلحة الوطنية، مستدلا على ذلك بانتساب معظم قادة الثورات الشعبية إلى الطرق الصوفية، هؤلاء القادة حسب سعد الله لم يكن لهم هدف انتقامي أو مادي وإنما هدف حضاري قومي هو الدفاع عن الدين والوطن إذ يقول في هذا المجال: " **ونكاد لا نجد حركة مقاومة خلال هذا العهد دون أن يكون وراءها مرابط أو شريف أو مولى الساعة يملأ قلوب الناس بالأمل ويبث فيهم روح التضحية والفداء ويقودهم إلى النصر أو الاستشهاد** "[25].

هذا ما استنتجه المؤرخ ناصر الدين سعيدوني عند دراسته للنظام الضرائبي لدولة الأمير خلص إلى أن مقاومته كانت شعبية بامتياز بسبب نظامها القائم على الشريعة الاسلامية أدى إلى التحاق مختلف القبائل الكبرى التي أذكى فيها، حسب سعيدوني الحماس الديني والوطني، ثم نقل قولا لقائد القوات الفرنسية (بيجو) يعترف فيه بأهمية هذا الدور: "**لقد كان عبد القادر ماهرا محنكا في ذلك، إذ أنه أثار الحماس الديني لمناصريه**" [26].

وقد رد المؤرخ يحيى بوعزيز على أطاريح المؤرخين الفرنسيين في مقال خصصه لهذه الغرض، اعتمد فيه منهجية تعتمد على عرض هذه الأطاريح، ثم نقدها بالبينة والحجة، حتى يطلع جمهور القراء على الاتهامات الخطيرة التي كالتها كتابات المؤرخين الفرنسيين للمقاومة الشعبية لإفراغها من محتواها الوطني، وفي الوقت نفسه يكشف معالم الزيف فيها. في هذا الإطار أشار إلى الأطروحة التي اتهمت المقاومة الشعبية بالتعصب والعنصرية، وعدم القدرة على العيش مع الأجانب، فندها بأدلة تاريخية دامغة، مفادها عيش مختلف الجاليات الأوروبية المسيحية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ولقرون في طمأنينة وسلام، خاصة الجالية الفرنسية، التي كما ذكر كانت تتمتع بكامل حقوقها الدينية والاقتصادية [27].

كما تطرق للدعاية الاستعمارية التي ربطت اندلاع المقاومات الشعبية بتردي الأوضاع الاقتصادية للسكان، أي إعطائها صبغة مادية، هذه الدعاية كما قال بوعزيز لقيت رواجا في أوساط المؤرخين الفرنسيين أمثال لويس رين، وروبين، وشاتولي، ولوسياني، وهيربيون، وبول أزان، وفوانو، وفيرو، وترومللي، ولاباسي وماقون، وقارو، وبيليسي، وشارل ريشار، وأوقيستان بيرنار، وسوسي، ولالمان، وبربيوا، وقورشود، ودوتي وبيكي، وفيلبير، بل ذكر أنه حتى من هؤلاء من زعم بأن هذه المقاومات ليست وطنية كونها موجهة من جهات خارجية، عندما اتهموا المقراني والحداد ومحي الدين بن الأمير عبد القادر بتبعيتهم لألمانيا والدولة العثمانية واتهموا الشريف بوشوشة وبن ناصر بن شهرة والشريف محمد بن عبد الله بموالاتهم للسنوسيين، وكما ذكر اتهموا آخرين بعمالتهم للإنجليز. ليخلص بأن الغرض الخفي من هذه الدعاوي والتهم هو إفراغ المقاومة المسلحة من محتواها الوطني [28] الذي كان يهدف إلى استرجاع السيادة. فالنزعة الوطنية الجزائرية بالنسبة لهؤلاء للمؤرخين الجزائريين تولدت في خضم المقاومة المسلحة عقب الاحتلال مباشرة بعد القضاء على سيادة الدولة الجزائرية، وما تبعها من محاولات المس بشخصيتها العربية الإسلامية، وكانوا يرون بأن المنحنى البياني لهذه النزعة يتصاعد كلما حاول الاستعمار تكريس وجوده السياسي والحضاري.

2.5. حجج إثبات نزعتي السيادة والوطنية في المقاومة السياسية

أما بالنسبة للمقاومة السياسية وعلاقتها بقضيتي السيادة والوطنية، فقد خالف المؤرخون الجزائريون الطرح الذي قدمه المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان [29] وتلميذه شارل روبير أجيرون [30] في كون عملية الوعي واليقظة السياسية الوطنية الجزائرية مستمدة من الخارج بعد قرن من الاحتلال.

في هذا الإطار رجع مؤرخو الرعيل الثاني من المؤرخين الجزائريين بالنشاط السياسي الوطني إلى 1830م استدلوا على ذلك بالحركة التي قادها العلماء والأعيان واستخلصوا منها دلالات تتعلق بمبدأ السيادة وفكرة الوطنية؛ فمثلا استشهد سعد الله بحركة حمدان خوجة وأبرز دورها في التنبيه لضرورة بعث الكيان الجزائري، إذ يقول في هذا المجال: "**وبالرغم من أن الجزائر كانت قد وجدت كدولة ذات سيادة منذ قرون، فإنها كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحضارة الإسلامية... ونظرا لاطلاعه الواسع على الأفكار الأوروبية، فإن خوجة قد التقط مبدأ الكيان الجزائري، له الحق في الوجود كما وجدت الكيانات اليونانية والبولندية والبلجيكية**"[31].

وقد انتبه أبو القاسم سعد الله إلى المقارنة التي قدمها حمدان بن عثمان خوجة بين الجزائر المستعمرة والقوميات الأوروبية المستقلة واستنتج منها بأن فكرتي الوطنية والسيادة كانت تخفق بها قلوب الجزائريين منذ الأيام الأولى للغزو الفرنسي، كون حمدان خوجة كمثقف وسياسي كان معاصرا للاحتلال عشية وقوعه واستطاع التقاط مبدأ الكيان الوطني نظرا لاطلاعه الواسع على الأفكار الأوروبية، وعليه فالوطنية حسب سعد الله وجدت نتيجة الاحتلال، هذا ما جعله يصف خوجة بأنه زعيم الفكرة القومية العربية الإسلامية، كونه أول جزائري عربي مسلم آمن بفكرة القومية للأمة العربية الإسلامية بمفهومها الحديث، لأن الفكرة الأوروبية للقومية حسب سعد الله، لم تظهر في العالم العربي الإسلامي إلا في أواخر القرن التاسع عشر وهي الفترة التي سبقها حمدان خوجة، فضلا أنه كان أول عربي مسلم يطرد من وطنه على يد الاستعمار من أجل قضية قومية [32].

وهذا تقريبا ما ذهب إليه مصطفى الأشرف عندما وصف حمدان خوجة بالأب الروحي للحركة القومية الحضرية غداة الاحتلال [33]، معتبرا بأن الوطنية في الجزائر نشأت نتيجة الاستعمار وعقب الاحتلال مباشرة [34]، وهو الطرح الذي تبناه كذلك جمال قنان [35].

إلى جانب حركة حمدان خوجة، قدم المؤرخون الجزائريون أدلة مادية أخرى أكدوا من خلالها قدم الوطنية السياسية ورسوخها [36]؛ منها مثلا عريضة 1887 التاريخية، التي جلبت انتباههم فعكفوا على دراستها واستنبطوا منها دلالات وأبعاد وطنية للمقاومة السياسية، هذه العريضة عرض نصها الأصلي مصطفى الأشرف، وهي موقعة عن ممثلي سكان قسنطينة (جمعت 1700 إمضاء)، أصحابها ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية، من مستشارين بلديين، ورجال إفتاء وأعضاء مجلس التحكيم ورجال صناعة، وأساتذة، وعلماء نخص بالذكر منهم عبد القادر المجاوي وحمدان الونيسي [37].

وقد تحدثت العريضة باسم كل السكان الجزائريين، وذكرت فرنسا بشروط اتفاق الجزائر، في إشارة إلى القوانين المجحفة التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية، خاصة قانون التجنيس، الذي أبانوا عن رفضهم له ، لأنه كما قالوا يهدد دينهم وممتلكاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فقد جاء في العريضة في هذا المجال قولهم : " **إن هذا المشروع (قانون التجنيس) لا يلائمنا ولا يستجيب لمطامحنا...إن أخذ الجنسية الفرنسية سوف يكون من نتائجه بالنسبة إلينا الإلغاء التام لقوانيننا ونظامنا من حيث المسائل المادية، ومن حيث قوانين الأحوال الخاصة...إن أعز المنى لدينا، وأشد ما نحرص عليه هو الحفاظ على قوانيننا...وفضلا عن هذا فإن تجنيسنا الإجباري العام وبدون قيد ولا شرط يفضي إلى التخلي عن عوائدنا، وسوف يفسد أخلاقنا**" [38]. وقد جاء في القسم الثاني من العريضة بعض المطالب التي كان يرى فيها الجزائريون تحفظ أحوالهم الشخصية وتساويهم في آن واحد مع الفرنسيين [39].

لقد اعتمد المؤرخون الجزائريون على القوة التمثيلية والمطالب السياسية والحضارية لهذه العريضة واستخلصوا منها دلالات وطنية على أساس أن الجزائريين كان لهم من الوعي ما جعلهم يتفطنون للسياسة الفرنسية الهادفة

إلى القضاء على الجزائر كأمة وحضارة، من خلال تلك القوانين الجهنمية (السيناتوس كونسلت)، لذلك سارعوا للتعبير عن رفضهم لها، وكانت هذه العريضة خير مثال معبر عن هذا الرفض الشعبي الوطني.

لذلك علق مصطفى الأشرف عن مطالب هذه العريضة بقوله: "**قد تضمنت ما هو أحسن من النظام الإيديولوجي**" [40]. واعتبرها جمال قنان بأنها كانت "**تمثل تيارا سياسيا بأتم معنى الكلمة**" بسب قوتها التمثيلية [41] التي شملت فئات شعبية عريضة من مختلف الطبقات الاجتماعية والفكرية، ووصفها سعد الله ببرنامج الجزائر الفتاة الذي ارتكز على ثلاثة محاور هي الحفاظ على الأحوال الشخصية (رفض الجنسية) والاهتمام بالتعليم العربي، واحترام القضاء الإسلامي [42]. وهو ما جعلهم يستخلصون منها الأبعاد النضالية الوطنية في فترة متقدمة عن تلك التي ذهب إليها المؤرخون الفرنسيون.

3.5. حجج إثبات نزعتي السيادة والوطنية في الثورة التحريرية

تصدى المؤرخون الجزائريون للكتابات الفرنسية التي حاولت إفراغ الثورة الجزائرية من بعدها الوطني ورصيدها الفكري الحضاري[43] ، في هذا الإطار، وفي معرض رده على هذه المزاعم، ذهب المؤرخ يحيى بوعزيز إلى القول بأن قضية الاستقلال الوطني كانت إحدى الأسباب الكبرى لثورة نوفمبر وهي القضية التي ناضل من أجلها الجزائريون في مختلف المقاومات الشعبية طيلة القرن التاسع عشر[44] ، بعبارة أخرى أراد بوعزيز أن يثبت بأن فكرة الاستقلال الوطني ليست غريبة ولا دخيلة، ولا جديدة، على الجزائريين. بل كما قال سعد الله، هي فكرة قديمة وجدت نتيجة الاحتلال [45]. اكتشفها الشعب الجزائري مع نزول أول قدم للغزاة الفرنسيين على الأرض الجزائرية، وما ثورة نوفمبر إلا تكملة لهذا المشروع الوطني الذي انطلق منذ 1830.

من جانبه رد المؤرخ محمد العربي الزبيري بأدلة على مزاعم الكتابات الفرنسية، التي جردت الثورة الجزائرية من محتواها الفكري الوطني، فبين أن نجاح هذه الثورة في عملية التوعية والتعبئة والتنظيم للجماهير، التي قادت الشعب الجزائري لاسترجاع السيادة الوطنية دليل على امتلاكها لمنظومة فكرية وطنية[46]، كانت هذه المنظومة بمثابة الموجه والمرشد للمناضلين خلال الثورة التحريرية، وهو ما نستنتجه من قوله: "**وعلى غرار كل الثورات، كان للثورة الجزائرية فكرها الذي مهد لظهور الوعي لدى الجماهير الشعبية وأنار الطريق للمناضلين الأوائل الذين تولوا بكل شجاعة وإقدام مهمة التجنيد والتأطير**" [47] .

وهو ماذهب إليه كذلك محمد البجاوي، عندما أكد على أن الحركة التي انبثقت في الفاتح نوفمبر1954م ذات طابع ثوري، تملك منظومة فكرية واضحة، تتضمن أهدافا عاجلة، وهي المعركة التي تخوضها ضد الاستعمار، وأخرى آجلة، هي استرجاع السيادة الوطنية بمختلف أشكالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فهو يقول في هذا الصدد: "**فجبهة التحرير الوطني إذ تقود معركة التحرير... إلا أنها في الوقت نفسه تدير ثورة، وهذا ما يوضح طبيعتها الحقيقية. إن هدفها الأساسي هو إنهاض الدولة الجزائرية سيدة نفسها وبناء جمهورية ديمقراطية واجتماعية أما برنامجها للمستقبل فمحدد كما يلي: إن جبهة التحرير الوطني**

تناضل بغية إقرار مجتمع حر في الجزائر قائم على الديمقراطية السياسية والاجتماعية وهي تناضل لتضمن لشعب الجزائر استغلال وإدارة ثروات بلاده والتمتع بها" [48].

ولعل هذا ما استنتجه المؤرخ جمال قنان من مجموعة دراساته حول الحركة الوطنية والثورة، خلص إلى أن جبهة التحرير الوطني لم تكن حدثا عارضا، ظهر بطريقة عفوية، دون خلفية نضالية وطنية، بل كما قال كانت ثمرة نضال وطني طويل خاضه الشعب الجزائري منذ عشرات السنين [49]. هذا النضال الوطني الذي انطلق منذ الغزو الفرنسي هو الذي جعل الشعب الجزائري، كما قال محمد العربي ولد خليفة، لا يعترف إلا بشرعية واحدة هي سيادته الوطنية ومقومات شخصيته الوطنية العربية الإسلامية التي كبحت محاولات الهيمنة عليه بشتى الطرق والأساليب [50].

وبذلك، فإن الثورة الجزائرية حسب هؤلاء المؤرخين لم تكن قصف رعد ظهر في سماء صافية، أو حدثا مفاجئا ساعدت عليه مجموعة من الصدف، كما زعم المؤرخون الفرنسيون، وإنما كان نتيجة التجارب الوطنية للمقاومة المسلحة والسياسية، التي منها استخلص الشعب الجزائري منظومته الفكرية وجهوده التنظيمية والتعبوية، وقاده لإحراز النصر الحاسم على الاستعمار الفرنسي واسترجاع السيادة الوطنية [51]. وعلى هذا الأساس كان الوصل بين الوطنية والسيادة في كتابات المؤرخين الجزائريين، على عكس منهج الفصل بينهما في مدرسة التاريخ الاستعماري، ومن سار في فلكها من المؤرخين الفرنسيين، الذين فضلوا الفصل بين المسألتين، لتشويه النشاط الوطني المرتبط باسترجاع السيادة الجزائرية.

خاتمة

في الختام وكخلاصة للموضوع، نقول إن المؤرخين الجزائريين، الذين شملتهم هذه الدراسة، أثبتوا بالبينات سيادة الكيان الجزائري، وأصالة الوطنية الجزائرية، وكشفوا زيف التهم التي كالتها الكتابات الفرنسية لثابتين من أهم ثوابت الأمة الجزائرية، هما السيادة والوطنية.

وقد كشفت النتائج المتوصل إليها من هذه الدراسة بأن معالجة المؤرخين الجزائريين لمسألة السيادة وقضية الوطنية، تميز بالرزانة العلمية، اعتمد فيها منهجا تاريخيا علميا سليما، معمولا به لدى الباحثين، هو الاستشهاد بالحقائق والوقائع التاريخية التي لا ريب فيها، وهو ما يطلق عليه في علم التاريخ بالشواهد المادية. واتصف أسلوب الكتابة لدى هؤلاء المؤرخين بالهدوء والموضوعية العلمية، عن طريق عرض الحقائق كما هي دون مبالغة أو تفاخر، أو تجريح بالطرف الآخر.

واعتمادا على هذه المنهجية العلمية، حسم جل المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم في هذه الدراسة (خوجة، المدني، الميلي، سعدالله، بوعزيز، الزبيري، الأشرف، قنان، سعيدوني) موقفهم من مسألتي السيادة والوطنية حيث أثبتوا تواجد الكيان الجزائري وسيادته قبل 1830م وإلى عصر ما قبل الميلاد، وأكدوا أصالة الوطنية الجزائرية، التي هي في نظرهم ليست دخيلة، بل نابعة من العمق الجزائري ومعاناته، وهي بذلك في نظرهم

قديمة، انبثقت مع التحديات التي هددت الجزائر في وجودها وحريتها عبر مختلف العصور وإلى غاية استرجاع السيادة الوطنية المغتصبة سنة 1962م.

وبذلك استطاع هؤلاء المؤرخون تقديم رؤية بديلة عن رؤية المدرسة الاستعمارية في هاتين المسألتين، ولا نبالغ إذا قلنا بأنهم تمكنوا من بناء توجه ومدرسة في هذا المجال، إذ يلاحظ بأن معظم الدراسات التاريخية المنجزة في الجامعات الجزائرية والآراء الصحفية (بعد استرجاع الاستقلال) تأثرت بأفكارهم وأطروحاتهم.

وهنا يجدر بنا تقديم اقتراحات ذات الصلة بموضوع البحث، والتي يمكن أن تفتح مسارات جديدة مكملة لهذه الدراسة، كتوجيه الباحثين وطلبة الدراسات العليا إلى معالجة هكذا نوع من المواضيع في المسائل الشائكة المتعلقة بالتاريخ الوطني، التي خضعت للتقصي والبحث من طرف مؤرخي المدرسة الجزائرية، من أجل اكتساب منهجية تاريخية وعلمية عند التعاطي مع قضايا أخرى مماثلة، وهي كثيرة، تعرضت للتشويه.

فضلا عن عقد ندوات وملتقيات علمية، وبرامج إذاعية وتلفزيونية، تعالج طرائق ومناهج المؤرخين الجزائريين في دراستهم لقضايا التاريخ الوطني، لتوسيع دائرة الاهتمام بمسائل أخرى من هذا النوع، في إطار مشروع وطني علمي طموح، يصبو إلى النهوض بالمدرسة التاريخية الجزائرية، التي يعود الفضل في ظهورها لهؤلاء المؤرخين الرواد الذين اعتمدنا عليهم في هذه الدراسة.

الهوامش:

(1) حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، تحقيق: محمد العربي الزبيري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص35.

(2) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية 1900- 1930**، ج2، ط 04، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص34.

(3) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص69، 75.

(4) محمد غانم، **المؤرخون الجزائريون والمرجعية الخلدونية**، إنسانيات، العدد65-66، 2014، ص20-24.

(5) عمامرة تركي رابح: **الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والاتصال، 2001، ص354.

(6)شارل أندري جوليان: **إفريقيا الشمالية تسير القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية**، ترجمة: المنجي سليم وآخرون، الجزائر، تونس، الدار التونسية للنشر الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، 1976، ص55.

(7) Gulien Charles Andre: **Histoire de l'Algérie Contemporaine la Conquete et les Débuts de la Colonisation**, T01,Paris ,Presse Universitaire de France, 1986, p418-492.

(8) Azan Le Générale paul: **Les Grands Soldats de l'Algérie**, Publications du Comité National Métropolitain du Centenaire de l'Algérie, sd, p67.

(9) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص55؛ شارل روبير أجيرون: **تاريخ الجزائر المعاصر**، ترجمة: عيسى عصفور، بيروت ـ باريس منشورات عويدات، 1982، ص139-141.

(10)Benjamin Stora : **Algerie- Vietnam deux guerres vues par deux cinémas**, Alger, éditions casbah, 1997, p81-82.

(11) نخبة من الأساتذة: **معجم العلوم الاجتماعية**، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص205.

(12) حمدان بن عثمان خوجة: المصدر السابق، ص35.

(13) أحمد توفيق المدني: **قرطاجنة في أربعة عصور من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي**، الجزائر، دار البصائر، 2008، ص31-94؛ مبارك بن محمد الميلي: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، (دت)، ص80-320.

(14) مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص30-33؛ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص170.

(15) رابح لونيسي: **التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف 1920 ـ 1954**، الجزائر، دار كوكب العلوم، 2009، ص366-367.

(16) محمد العربي الزبيري: **مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص107.

(17) محمد البجاوي: **الثورة الجزائرية والقانون**، ترجمة: علي الحنش، دمشق، دار اليقظة العربية، 1965، ص47.

(18) محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص114.

(19) جمال قنان: "**بيان أول نوفمبر أعاد الاعتبار إلى تاريخنا الوطني قبل عام 1830**"، الملتقى الوطني الأول حول السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، ورقلة (الجزائر)، أفريل 1996.

(20) أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900**، ج1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992 ص273-274.

(21) مصطفى الأشرف: **الأمة والمجتمع**، ترجمة: حنفي بن عيسى، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص85.

(22) المرجع نفسه، ص119.

(23) مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص88-89.

(24) Gulien Charles Andre: op, cit, ,p418-429

(25) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص396.

(26)ناصر الدين سعيدوني: "**النظام الضريبي لدولة الأمير عبد القادر**"، مجلة الثقافة، السنة13، عدد75، الجزائر، 1983، ص123.

(27) يحيى بوعزيز: "**حروب المقاومة كما صورتها الكتابات الفرنسية**" مجلة الدراسات التاريخية، عدد 05، 1988، ص160-161.

(28) المرجع نفسه، ص161-162.

(29) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص55.

(30) شارل روبير أجيرون: المرجع السابق، ص139-141.

(31) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج2، ص34.

(32) المرجع نفسه، ص34-35،.

(33) مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص207.

(34) المرجع نفسه، ص75.

(35)جمال قنان: **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1994، ص157.

(36) مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص238.

(37) المرجع نفسه، ص238-242.

(38) المرجع نفسه، ص238-239.

(39) المرجع نفسه، ص239-240.

(40) المرجع نفسه، ص238.

(41) جمال قنان: **قضايا ودراسات**، المرجع السابق، ص174.

(42) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المرجع السابق، ص174.

(43) Benjamin Stora: op, cit, p81-82.

(44) يحيى بوعزيز: المرجع السابق، ص162.

(45) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المرجع السابق، ص68.

(46) محمد العربي الزبيري: **الثورة الجزائرية في عامها الأول**، قسنطينة، دار البعث، 1984، ص18.

(47) المرجع نفسه، ص18.

(48) محمد البجاوي: المرجع السابق، ص133.

(49) جمال قنان: **قضايا ودراسات**، المرجع السابق، ص08-09.

(50) محمد العربي ولد خليفة: **الثورة الجزائرية معطيات وتحديات**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1991، ص81.

(51) المرجع نفسه، ص57.